

على مقهى شناكا في الخرطوم، في أربعينيات القرن العشرين، كان يجلس كل من السيد/ إسماعيل محمد بخيت "حبه" مؤسس ورئيس الخطوط البحرية السودانية في ما بعد والسيد/ أمير الصاوي أسطونة الإدارة السودانية، والسيد/ محمد عباس فقيري الذي تولى عدداً من محافظات السودان، والسيد/ منصور عبد الحميد وكانوا آنذاك من مستخدمي السكرتارية الإدارية لحكومة السودان (البريطانية).

وفي ذات مرة جاءهم السيد/ زين العابدين إبراهيم بلال سكرتير السيد عبد الرحمن المهدي، نبأ تصديق البريطانيين بقيام حزب الأمة وطرح الإنكليز فكرة ملكية السودان على السيد/ عبد الرحمن المهدي. فسخطوا أيما سخط، وقدحوا الفكرة وحاملها والمحمولة إليه، وعزموا بمضاء على مقاومتها بشكل سياسي، فاتفقوا على تأسيس حزب سياسي يضاد فكرة الملكية، ومن وما يتصل بها، وسموا فكرتهم: الحزب الجمهوري. وكتب السيد إسماعيل محمد بخيت مسودة دستور الحزب بتكليف منهم.

وعن طريق المهندس أبو بكر علي رضا الذي ترأس هيئة السكك الحديدية فيما بعد، توصل هؤلاء الشباب الى رجل يحمل الفكرة ويثريها، وكان هذا الرجل هو المهندس بالسكك الحديدية محمود محمد طه.

كان محمود موقوفاً عن العمل لأنه كتب في جريدة "Sudan Star" مقالاً بعنوان: "خجل الحضارة" يهاجم فيه الحكومة الإستعمارية. رافضاً تحقيقها معه حول ما قام بكتابته.

وقد إستقل محمود بالفكرة والرأي منها عن تنظير السيد/ إسماعيل بخيت، وهيمنة السيد/ أمير في أغسطس عام ١٩٤٦، وذلك حين أصر على (إقحام) الحزب في مسألة الطهارة الفرعونية ومنع حكومة الإستعمار لها بمدينة رفاعة.

١/ الخلفية الفكرية:

كانت خلفية السودان الفكرية الإجتماعية متأثرة بعوامل عدة منها:

- ١/ صراع الدولة المهدية ضد دولة الخلافة الإسلامية.
- ٢/ صراع الأشراف والأنصار ذوي الوشائج الغرب أفريقية، وانتصار الأخيرين وشوهم الدولة.
- ٣/ صراع المهدية ضد القبائل، وضد (الفتح)، الإستعمار الثنائي وإنهزامها أمامه.
- ٤/ نشوء وتطور وارتقاء الحركة الوطنية نضالاً ومصانعة تجاه الإستعمار (انتفاضات دينية وقبائلية وحركة ١٩٢٤ وظهور النشاط الماركسي، وحركة الأندية الثقافية الإجتماعية، والحركة النقابية والشيعية)
- ٥/ كما حمل تطور التعليم قدرات أعلى للشباب في تلك الأيام، لإدراك وتخطيط حياتهم، تطوراً حمل معه التفتح العقلي للأفكار الإنسانية حول الديمقراطية والإشتركية والفهم الإجتماعي للإسلام.

٢/ الأغنياء الجدد:

تأثرت ذهنية الطلاب والخريجين السودانيين بالتفكير العلمي الذي تضمنته مواد العلوم الطبيعية والإجتماعية التي تلقوها في المدارس الحديثة.

وإغتنى العقل العلمي لديهم بالأدب الأوربية والتاريخ.... والفلسفة، ويزدهار الحركة الثورية في روسيا، وكان محمود محمد طه ضمن هؤلاء المتأثرين بحداثة التعليم وعلميته، ومن الأغنياء الجدد به.

٣/ قلب عين الحقيقة:

نظر محمود- الذي لقب فيما بعد بالأستاذ- في التاريخ السوداني نظرة أهل الوسط المسلمين ذوي الأصول العربية، فقدر أن المحرك لهذا التاريخ هو دين الإسلام!!، وسبق محمود د. عصمت سيف الدولة وتنظيره في جدل الإنسان، بعشر سنين على الأقل حين كر البصر في الإسلام نفسه كدين شمولي، يجمع السياسة والحكم والإقتصاد والتنظيم الإجتماعي بالعقيدة، جمعاً يحرك فهم الإنسان ووعيه وصدقه المرتبط بوجده وكده، وعرفانه ويقينه. وإجتهد الأستاذ ببيان وحدة وإنفصال الخلق والوجود في الإنسان، التي قدرها عليه أخو الصفا صاحبه إسماعيل.

كان إجتهد الأستاذ مختلفاً تمام الاختلاف عن سيرورة حركة الأخوان المسلمين في تطورها من موقف الخوارج والمذاهب الحنبلية والإباضية وقوقعة الهجرات في نجد وفي مدينة حسن البنا الإسماعيلية وصولاً الى دعواهم بتنقية الممارسة الإجتماعية للدين، دون أن يتعرضوا ومعهم الأستاذ محمود للنظم والأسس الإقتصادية الإجتماعية السياسية التي تشكل واقع علاقات الناس مع بعضهم ومع ربهم، بما فيها من ظلم وإستبداد واستغلال وقمع وقهر وخوف وكذب ونفاق وسحت ومجون و..... مجاعات وحروب.

كان اختلاف إجتهد الأستاذ الشهيد عن هذا كله في نهجه تجديد عقل القرءان الكريم، مكيه ومدنيه، والشريعة فيهما والحقيقة، الظاهرة والباطنة فيه وما تعلق من ذلك بسنة النبي(ص) في خاصة نفسه وما كان للعموم وأوان ذلك وعصره وظروفه.

٤/ الكدح والتطور

من العلامات البارزة في هذا السياق مفهوم التطور القرآني للإنسان من خلال الآيات الكريمة(قالت الأعراب أما قل لم تؤمنوا قولوا أسلمنا ولم يدخل الإيمان في قلوبكم بعد) وصولاً للآية الكريمة(لا تموتن إلا وأنتم مسلمون) حيث يدلل الأستاذ على إرتقاء القرآن بفهم الإنسان له من مرحلة أولى للإسلام إلى الإيمان إلى مرحلة الإسلام الثاني/ة.

فعلى نهج (إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) ربط الأستاذ محمود تطور الإنسان والمجتمع والوعي بتطور الحياة الإنسانية من (أسفل سافلين)، وفهمه التطوري هذا قد يكون نتيجة إمامه بكتاب "دلالة الحائرين" لإبن ميمون الأندلسي مثلاً أو لمعرفته بالدورة المغلقة للتاريخ كما عند بن خلدون وهيجل، وبالأرجح لفهم داروني لنشوء وتطور وارتقاء الأنواع ولكنه مطبق على حالة إسلام الأفراد والجماعات فتأمل أيها المعبر تطور فهم القرءان عنده بتطور فهم العلوم المادية، وتأمل كيف (يتسع) العقل للفيوض الدينية بتوسع إمكاناته.

٥/ الميزان:

جاء المؤلف الأشهر للأستاذ/ محمود "الرسالة الثانية من الإسلام" الذي يستفيض فيه في وجوب فهم الدين بواسطة أصوله المتجددة الكامنة في منهاج تنزيل القرآن وفهم النبي (ص) له، حتى لا يصيب الوهن وجود الدين في (الظروف الحديثة) التي توجد فيها مجتمعات الإسلام، هنا يتفوق الأستاذ محمود على كتاب د.حسن الترابي المسمى باسم: "تجديد أصول الفقه الإسلامي" فكتاب د.حسن الترابي يميل للتجديد السياسي لإخراج الإسلام من الركود، إخراجاً يعتسف أصول التشريع الإسلامي ويحول الإخراج إلى خروج، وطلب العدل إلى طغيان وفساد، بينما محمود يطلب بفهمه القرآني الجديد أصول الشريعة والتشريع مكتشفاً بعلم العارف وجهده (أصول الحقيقة) فيهما ونهج الشريعة فيها، متمثلاً فهم الرسول للتشريع وأحواله، وهو جانب واسع من الفقه يزهما فيه بجدارة المنهج الأستاذ الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه "الياقوت المسمى" أصول فلسفة التأويل".

٦/ سعار محكمة الردة:

في ١٩٦٨ تعرض الفكر الجمهوري لمحنة كبرى أضيفت لمحنة اليومية فكفر (بدعي) يسبق الفهم السلفي، وهي محنة محكمة الردة، التي أقيمت إحتساباً ضد الأستاذ محمود محمد طه.

كانت محكمة الردة في أتون حركة الميثاق والدستور الإسلامي التي أقامتها مع الأخوان المسلمين الأحزاب الطائفية لشبه الإقطاع-الرأسمالية، والتي طرد بموجبها نواب عدداً من البرلمان، الذي حظر هو نفسه فيما بعد، ومنع الحزب الشيوعي، وقمعت الصحافة، وصودرت أنشطة ومنظمات جماهيرية، وعطل القضاء، وأحرقت الكتب، ورفعت الأسعار والضرائب.

وخرج الأستاذ من هذه المحنة بصورة إجرائية تتعلق بعدالة الحسبة ذاتها. وشارف خروجه ثورة/ إنقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩ بقيادة الضباط الأحرار.

٧/ الحرية في الميزان:

كانت ١٩٦٩ بداية مرحلة جديدة في تاريخ السودان، إنتقلت به بعد ألوف السنوات من حكم القبائل والبيوت الإقطاعية إلى حكم البرجوازية الصغيرة، ذات النزعات التقدمية، وتمحورت خطوط الحكم الجديد في نقاط: الإتحاد الإشتراكي والجمهورية الرئاسية، والإقتصاد المخطط، والعلاقات الدولية غير المنحازة، لكن الصراع بين المصالح الطبقيّة الكامنة خلف قوى مايو اندلع وبانت نيرانه في مؤتمر الفكر العربي المنعقد بالخرطوم ومؤتمر القوى الإشتراكية.

حيث إحتدم الجدل حول قيادة الحزب/ المجتمع للدولة أو قيادة الدولة للمجتمع ولحزبه الطليعي وهو الصراع الذي انتهى آنذاك بانقسام وقمع الشيوعية، وإهدار دمها إثر الحركة التصحيحية ليوليو ١٩٧١ التي سبقت غيرها.

في تلك السنوات كان موقف الأستاذ محمود من فهم الإسلام كحرية للإنسان وسلام للمجتمع يتقارب في إحدائياته مع موقف السلطة، حتى ظنه الكثيرون بوقاً دينياً لها.

كانت آراء الأستاذ/ محمود محمد طه المضادة لديمقراطية Westminster وتحكيمها اللوردات في أمور الشعب دورها في سهولة الظن به.

كما كانت آراءه في الاشتراكية الخالية من صراع الطبقات والقائمة بالإيمان والقناعة والحب، أثرها في زيادة الظن به. كما لعبت نفس الدور آراءه في تنظيم المجتمع بشكل عقلائي سديد (تكنوقراطي) أثرها في ربطه بجمهورية الإتحاد الاشتراكي. إذا تجاوزنا إنفعالات السياسة، فالواضح أن طرح الأستاذ للسلام كان يتزامن مع ضرب السلطة لخصومه.

٨/ فقيه وفلاسفة:

كانت أصولية فهم الأستاذ محمود تتجاوز المعاني السلفية/ الإخوانية للإصطلاح الديني السياسي، فأصولية الجمهوريين كانت تراعي مسائل من نوع: الحركة الاجتماعية وإضمحلال الدولة وتذويبها، وحكم الإنسان لنفسه من خلال حريته الخالية من الضرورة، ولكن هذا التنظير كان يتضاعل الي جانب تنظير المفكر الشهيد/ عبد الخالق محجوب حول علاقات الحرية الاجتماعية-الفردية وشروطهما، كما يتوضع التنظير الجمهوري للاشتراكية عن مدرسة د. بابكر كرار في الحزب الاشتراكي الإسلامي، وحتى مدرسة الحزب الإتحادي الديمقراطي- إن جازت عبارة مدرسة- اللتين ارتكزتا على إستراق بعض عموميات التخطيط الإقتصادي في دعاواهما الإشتراكية. فالأخوان الجمهوريون يستبدلون هذه التنظيرات بالأخذ بتلابيب الحاجة والإستغناء، والزهد والتقشف، والعلم والعمل، والفناء في الذات الإلهية.

٩/ وحدة المجتمع:

المدرسة الجمهورية كانت رائدة في النظر للنساء اللاتي خلقن من نفس واحدة وحركتهن في المجتمع حركة أصيلة، لا بديل لها، وشقائقيتهن للرجال، وتحملهن المسئوليات العقيدية والاجتماعية صنواً لهن، وفي ذلك جاءت مسألة المساواة أو بالأصح التساوي في الميراث والأحكام بما في ذلك من جواز الشهادة على الأحداث والأشخاص، والطلاق بالقضاء، وحكم البلاد، مما كان مثار صدمة حضارية، وعقائدية لمجتمع تقليدي الإسلام.

١٠/ اليقين والسلام:

ارتبط الأستاذ الشهيد برواه للإسلام والإيمان والإسلام و(إنك كادح الي ربك كدحاً فملاقيه)، وعروة ارتباطه هذا هي السلام وأسس ذلك على أن تطور الفرد الوجداني وارتقاءه بالعبادة والعمل الصالح يشيع في نفسه ومجتمعه السلام. وكذلك الحال في تطور المجتمعات يصبح الحال سلاماً شاملاً، فالسلام عنده يمثل البداية والنهاية للفرد والدولة والكون، وفي إجهاده الواسع هذا لتحقيق السلام، وفي يقينه هذا يبدو لي أنه فسر آية (فسنسمه في الخرطوم) تفسيراً سياسياً ضيقاً.

١١/ مآزق السوق الحرة:

الربط الجمهوري بين الإسلام والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسلام، واجه موقفاً عصيباً آخر في ضفاف ١٩٧٨ في خضم طغيان الاحتكارات الدولية والمحلية على السودان، بآليات الإستثمار الأجنبي وإجراءات(الإصلاح)المالي والهيكلية للاقتصاد، التي فرضتها إمبريالية البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. كان حلف الاحتكارات في الحكم والمعارضة يأخذ شكلاً دينياً سياسياً تمثل في ما يسمى بدعوة المصالحة الوطنية والقيادة الرشيدة ثم النهج الإسلامي، والولاية بالمبايعة فالإمامة، في تدين يسهل تقبل أقدار السوق وأيديها الخفية. هنا وقع الفكر الجمهوري المدافع عن الحكم (المقدر) المناسب للظروف الاجتماعية في مآزقه المستطير. فبتطور الطغيان من وقف لتطور المجتمع الي قهر له ، كان لابد للفكر الناصح أن يتحول الي دور الفكر المعارض، فأصدر الأستاذ منشوراً صغير الحجم وعظيم المعنى عنوانه: "هذا أو الطوفان" ومضمونه أن عقوبات الجلد والبتتر وقطع الأيدي والأرجل من خلاف ليست أصيلة في منهاج التشريع الإسلامي، بل هي من فروع الموقوتة بمعالجة أوضاع معينة، هذه الأوضاع التي يقع السودان بفقره وجوعه، وعديده الديني، وإزدهاره العلمي والفقه والقانوني خارج دوائرها.

وإن قصر المنشور عن تبیین موانع الحدائة والتقدم الاجتماعي والسياسي والقانوني مثل إعتبار الشعب مصدر السلطات، والتحول الإنساني لأساليب العلاج الاجتماعي للجريمة، وألوية معالجة الإستغلال بدلاً من معالجة نتائجه، وغير ذلك من المسائل التي تعطل تطبيق الحدود فوق الشبهات والموانع التي ذكرها البيان الجمهوري.

(للموضوع بقية في العدد القادم)